التمهيد

يَسُرُّنا أن نُقَدِّمَ لِطُلاّبنا الأعزّاء الطبعة الثّالثة مِن كتابِ *شذرات من النَّظم و النَّثر في العصرِ الجاهلي* و قد حَرَصْنَا عَلَى أنْ تَأتيَ هذه الطَّبْعة أكثر تنوّعاً و تناسباً مَعَ مَناهجِ وزارةِ العُلومِ لِتكونَ معيناً مُرشداً و مَنْهَلاً ثَرّاً يَتْرَعُ منه أبنَاؤنا مَا يَرْوي عَطَشَهُم في مَسيرتهمُ الدِّراسيَّة.

و نَحنُ حينما بَدَأنا بإصدارِ هذه السلسلةِ مِنَ الكُتبِ الَّتي تَعْرِضُ أفضَلَ ما تَفَتَّقَت عنه قرائحُ الأدباءِ وَ الشُّعراءِ خلالَ مُختلفِ العُصورِ. كُنّا نَشعُرُ بِالنَّقص في مثل هذا النَّوع منَ الشُّروح، ذلك أنَّ السَّلَفَ الصّالح مِن أدبائنا عَمِلُوا جاهدينَ في نَشرِ كُتُبٍ تَشْرح النُّصوصَ الأدبيَّة وَ الشِّعريّة، و لكن جاءَ بعضُها شارِحاً الألفاظ دونَ الأبيات و الجُملِ، و بَعضُها الآخرمُكْتَفِياً بِشَرْحِ البَعْضِ دونَ الكُلِّ، بِحَيثُ لا تَفي بما يَحتاجُ إليه الدَّارسُ وَ البَاحثُ.

لذا حَاوَلنا جَهْدَنا رَأبَ هذا الصَّدع فيما نَشَرْنا و نَنْشُرُ، كما أنَّ زميلى الدّكتور سعيد واعظ بَذَلَ أيضاً جُهداً كبيراً في جمع أبياتِ الحَمَاسات و تنسيقها كما قُمنا بِشَرحِ ما لَم يُشرح منها. و سَتُنْشَرُ إن شاء الله قريباً في مجلّدين أو مجلّد ضَخْم يَضُمُّ سِمَات الأدب في هذه الحماسات. سائلينَ المَولى التَّوفيق في إغناء مكتبتنا الإسلاميّة، و الله الوكيل الموكّل.

المقدّمة

لا شَكَّ في أنَّ الشِّعْرَ في العَصْرِ الجَاهِلِيِّ كانَ مُزْدَهِراً ذَلِكَ أَنَّ مَا وَصَلَنَا مِنْهُ كانَ نَاضِجاً في نَمَاذِجِهِ الأولىٰ عَلَى يَدِ المُهَلْهِلِ وَ ٱمْرِىءِ القَيْسِ وَ غَيْرِهما، وَ لا بُدَّ أَنَّهُ سَبَقَتْها فترةُ تَطَوُّرٍ في الفَنِّ الشِّعْرِيِّ وَ التَّعْبِيرِ عَنِ المَشَاعِرِ وَ الاحْسَاسَاتِ لا نَدْري عَنْهَا شَيْئاً كَحَالِ الشِّعْرِ الفَارْسِيِّ الَّذِي يَبْدَأُ بِرودكي وَ الشِّعْرُ عِنْدَ العَرَبِ يُعْتَبَرُ دِيوانَ عُلُومِهم وَ حِكَمِهِمْ وَ سِجِلَّ وَقَائِعِهِمْ وَ أيَّامِهِمْ وَ سِيَرِهِمْ وَ مَفَاخِرِهِمْ.

وَ لِلْقَصِيدَةِ الجَاهِلِيَّةِ تَقَالِيدُهَا وَ أَسَالِيبُها، وَ مَوْضُوعُهَا وَاقِعيٌّ إنَّمَا مَحْدودٌ يَعْكِسُ حَيَاةَ الصَّحْرَاءِ. و الشِّعْرُ العَرَبيُّ مِنَ النَّوْعِ الغِنَائِيِّ وَ الوِجْدَانِيِّ يُعَبِّرُ عَنِ العَوَاطِفِ وَ الإحْسَاسَاتِ، فَإذَا أُعْجِبَ الشَّاعِرُ بِشَخْصٍ مَدَحَهُ و إذَا سَخِطَ عَلَيْهِ ذَمَّهُ، وَ إذَا تَأَلَّمَ لِمُصَابِهِ رَثَاهُ وَ إذَا أحَبَّهُ تَغَزَّلَ بِهِ، وَ إنْ رَاقَ لَهُ شيءٌ وَصَفَهُ، وَ هُوَ في أصْلِهِ بَدَأَ بِالغِنَاءِ لِلإبِلِ، وَ ٱرْتَبَطَ فِيما بَعْدُ بِالمُوسِيقى و الغِناءِ و قَدْ ٱستُقْبِلَ الرَّسُولُ (ص) بِالشِّعْرِ المُلحَّنِ وَ الضَّرْبِ عَلَى الدُّفُوفِ، كَمَا وَضَعَ الخَلِيلُ بنُ أحْمَدَ الفَرَاهِيدِيُّ البُحُورَ الشِّعْرِيَّةَ بِالاعْتِمادِ عَلَى المُوسِيقى، ذَلكَ أَنَّهُ كانَ مُوسِيقيّاً. وَ ظَلَّ الشِّعْرُ المَادَّةَ الأُولَى لِلْغِنَاءِ حَتَّى العَصْرِ الأَنْدلُسيِّ، فَرَأينَا المُوَشَّحَاتِ الَّتي خُلِقَتْ لِلْغِنَاءِ وَ كَانَتْ تُعَبِّر عَنِ الاحْسَاسَاتِ مِنْ خِلالِ طَبيعَةِ الأنْدلسِ الفَاتِنَةِ، فَالشِّعْرُ العَرَبيُّ رُومَانْسِيٌّ يَعْتَمِدُ عَلَى العَاطِفَةِ مُنْذُ بِدَايَتِهِ عَكْسَ الشِّعْرِ الكِلاسِيكيِّ الَّذِي كانَ في اليُونَان، وَ ٱعْتَمَدَ عَلَى العَقْلِ وَ الفِكْرِ وَ الفَلْسَفَةِ.

وَ هَكَذَا يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّ الشِّعْرَ مُنْذُ عُصُورِهِ الأُولىٰ كانَ غِنَائيّاً وِجْدَانيّاً تَتَخَلَّلَهُ بَعْضُ المُغَامرَاتِ الغَرَاميَّةِ وَ القِصَصِ القَصِيرَةِ الَّتي هِيَ أَشْبَهُ بِحَوادِثَ عَابِرَةٍ. وَ لَمْ يَصِلْنَا مِنْ ذَلِكَ الشِّعْرِ إلاَّ أَقَلُّهُ كَمَا يَقُولُ أبُوعَمْرو بْنُ العَلاَءِ. وَ إذَا كَانَ هَذَا حَالَ الشِّعْرِ الَّذي

يَسْهُلُ حِفْظُهُ فَكَيْفَ حَالُ النَّثْرِ؟ يَرى كَثِيرٌ مِنْ مُؤرِّخِي الأَدَبِ أنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنَ النَّثْرِ كانَ قَلِيلاً جِدّاً فَقَدْ ضَاعَ أَكْثَرُهُ و لاسِيَّمَا بَعْدَ أنْ شُغِلَ المُسْلِمُونَ بِالقرآنِ وَ الحَدِيثِ، فَلَمْ يُعْنَ الرُّوَاةُ إلاّ بِالأمثَالِ وَ الحِكَمِ وَ الوَصَايَا وَ الخُطَبِ لأَنـَّها أَعْلَقُ بِـالذِّهْنِ وَ أبْـلَغُ وَ أَوْجَزُ.

وَ قَدْ كَثُرَتِ الأَمْثَالُ في كَلامِ العَرَبِ أكَانَتْ مُرْسَلَةً بِذَاتِها أو مُـقْتَطَفَةً مِـنْ قَـوْلٍ، وَ يَمْتَازُ المَثَلُ بِايجَازِ اللَّفْظِ وَ صِحَّهِ المَعْنَى وَ حُسْنِ البَـيَانِ و لُـطْفِ الإشَـارَهِ وَ إصَـابَةِ الغَرَضِ وَ صِدْقِ التَّجْرِبَةِ، كَمَا عُنِيَ العَرَبُ مُنْذُ القَدِيمِ بِالأمْثَالِ فَاقْتَبَسُوها مِنْ أشْعَارِهِمْ وَ أَقْوَالِهِمْ وَ آدابِهِمْ وَ تَعَاقَبَ العُلَماءُ عَلَى جَمْعِهَا وَ شَرْحِهَا وَ أشْهَرُهُمْ المَيْدانِيُّ المُتَوفَّى سَنَةَ ٥١٨ ه /١١٢٤ م في كِتَابِهِ مجمع *الأمْثَال*.

وَ كَانَ مِنَ النَّثْرِ الجَاهِلِيِّ الّذي بَقِيَ القَلِيلُ مِنْهُ الوَصَايَا وَ الخُـطَبُ، أمّـا الأُولىٰ فَتَكُونُ لِقَوْمٍ مُعَيَّنِينَ في زَمَنٍ مُعَيَّنٍ كَوَصِيَّةِ الوَالِدِ لأوْلادِهِ. أوِ الرَّجُلِ لأهْلِ بَـيْتِهِ قُـبَيْلَ المَوْتِ. أمّا الخُطَبُ فَإنَّها أقْرَبُ الفُنُونِ النَّثْرِيَّةِ مِنَ الشِّعْرِ وَ قَـدْ اِزْدَهَـرَتْ فـي العَـصْرِ الجَاهِلِيِّ إذْ كَانَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ عَدَدُ مِنَ الخُطَباءِ إلى جَانِبِ شَـاعِرِهَا، وَ قَـدْ ذَكَـرَ **الجَاحِظُ** لَنَا عَدَداً مِنْهُم في مُسْتَهَلِّ كِتَابِهِ *البَيَانُ وَ التّبيين* وَ تَحَدَّثَ عَنْ مَزَايَا الخَطِيبِ وَ الخُطْبَةِ، فَالخَطِيبُ يَمْتَازُ بِذَلاقَةِ اللِّسَانِ وَ طَلاقَتِهِ وَ حُسْنِ البَيانِ وَ نَصَاعَتِهِ، وَ قُوَّةِ النَّبْرَةِ وَ مُحْكَمِ الحُجَّةِ. يُكْثِرُ مِنَ الأمْثَالِ وَ الأشْعَارِ، لِتَأتِي خُطْبَتُهُ جَزْلَةَ اللَّفْظِ، مَتِينَةَ التَّرَاكيبِ مَعَ مُزَاوَجَةٍ في الجُمَلِ القَصِيرَةِ وَ بُعْدٍ عَنِ التَّكَلُّفِ وَ الزَّخَارِفِ اللَّفْظِيَّةِ.

وَ كَانَ الخَطِيبُ يَقِفُ عَلَى نَشَزٍ مِنَ الأرْضِ أو يَقِفُ عَلى ظَهْرِ فَرَسِهِ أوْ نَاقَتِهِ رَاكِزاً رُمْحَهُ عَلَى الأرضِ مُتَّكِئاً عَلَيهِ كَمَا فَعَل قُسُّ بنُ سَاعِدة الأيَادِي في سَوقِ عُكاظ.